تخيُّل «السلام»

إذا أردنا أن نعرف ماذا في السلام التطبيعي، يجب أن نعرف ماذا في الذكاء الاصطناعي.

عماد عطالله



نحن نُفتَن دائماً بما تعدنا به التكنولوجيا، وأحياناً نغفل عمّا يمكن أن تفعله بنا. اعتقدنا أن وسائل التواصل الاجتماعي ستقرّب البشر من بعضهم، وتكسر عزلة الفرد، وتجعل العالم أكثر انفتاحاً ووعياً. لكن وجدنا العكس تقريباً؛ أدمنَتنا المنصات على شاشاتها وسمّمت الإدراك السياسي والاجتماعي إلى أن أنتجت أكثر الأجيال قلقاً واكتئاباً. صدفة؟ لا، بل نتيجة طبيعية لنظام حوافزه قائمة على جذب الانتباه بأيّ ثمن، عوضاً عن خدمة الإنسان.

يتكرر الدرس نفسه بين مروّجي فكرة «السلام» مع الكيان الصهيوني. فالأمر، ويا للمفاجأة، أعقد وأخطر من أوهام الواقفين في طوابير الفيزا أمام «السفارة في الأشرفية»، بحثاً عن «كأس الويسكي» في يافا/تل أبيب.

أنصار هذا السلام يتخيّلون «الممكن» ويرفضون رؤية «المرجّح». لنضع جانباً كارهي اللبناني «الآخر» وحوافزهم الكيْدية، ولنركّز على من يريدون صفاء العيش الكريم بين أكثرية اللبنانيين. هؤلاء يتحدّثون عن الاستقرار والاستثمارات والسياحة وإعادة الإعمار والانفتاح على العالم، تماماً كما آمن جيل الإنترنت الاجتماعي ببناء عالمٍ أكثر إنسانية. لكنّ السياسة، مثل التكنولوجيا، تُفهَم بالحوافز وموازين القوى، لا بثانوية النوايا.

أرِني الحوافز، أرِك النتائج. هي قاعدة يعرفها مستعملو التكنولوجيا كما هواة الجيوسياسة. لسنا بحاجة إلى عقل كيسنجر لتفكيك الشيفرة، يكفينا هواة بعبدا. هذه القاعدة التي فسّرت كوارث وسائل التواصل ومخاطر الذكاء الاصطناعي تصلح أيضاً لفهم معنى السلام بين كيان نووي متفوّق عسكرياً وتكنولوجياً، وبلد هشّ ومُنهك، مُفكّك ومُنقسم، مُختَرَق سيادياً ورقمياً مثل لبنان.

فالرسائل تُفهم من بداياتها. الكيان يحتل أرضاً لبنانية، يقصف متى شاء، يقتل المدنيين، يجرف البلدات، يهين الدولة والجيش، ويتعامل مع لبنان كساحة أمنية مفتوحة. أي سلام بين ندّيْن يُولَد من هذا الاختلال الهائل في القوة؟ هو عملية إعادة تشكيل للبنان وفق شروط الطرف الأقوى.

الكارثة أن فئة مُصغّرة من اللبنانيين، صاخبة وأعلى ضجيجاً من غيرها، تتعامل مع «السلام» كما يتعامل الناس مع الذكاء الاصطناعي، بإبهار طفولي تجاه الوعود، مع تجاهل مُتعمّد أو ساذج للبنية الحقيقية التي ستحكم النتائج. ربما تكمن الحقيقة في السؤال المُزعِج: ماذا سيحدث عملياً عندما يدخل بلدٌ مُستضعف في شبكة تطبيع اقتصادي وأمني وثقافي مع كيان فرانكشتايني يملك تفوّقاً ساحقاً في كل شيء، لكنه يفتقر إلى الحد الأدنى من الشرعية الأخلاقية والتاريخية؟ ماذا سيحدث لاقتصاد لبنان؟ لقراره السياسي؟ لخطابه الإعلامي (المتنفّع أصلاً)؟ لذاكرته المدوّنة؟ لجامعاته؟ لما تبقّى من سيادته؟ لمياهه وغازه؟ لسكان الجنوب؟ لمفاتيح الأبواب وعودة اللاجئ الفلسطيني إلى دياره؟ ولموقع لبنان التاريخي كمجتمع متنوّع حافَظَ، رغم كل المصائب، على شيء من استقلاله الثقافي؟

وهل لدى الكيان الصهيوني، أساساً، أي حافز حقيقي لأن يستعيد لبنان عافيته وسط مخططات «أرض الميعاد الكبرى»؟

أعـادت وسـائل التواصـل تشـكيل المجتمعـات من دون احتلال عسـكري، فقـط عـبر الحـوافز والخوارزميـات والإدمـان النفسـي. فكيـف بكيـان يملـك أجهـزة اسـتخبارات شـريرة ومتطـوّرة، وشبكات نفوذ دولية، وتفوّقاً اقتصادياً وتقنياً، وتاريخاً طويلاً من الإرهاب والاختراق والتفكيك؟ هل يظن أحد أن لبنان، بصيغته الحالية المُنهكة، قادر على امتصاص كل ذلـك دون التحـوّل التـدريجي إلى تابع اقتصادي وأمني وثقافي أكثر تقسيماً؟ هل يصعب علينا تصوّر المنافسة بين مواطنينا من كل الطوائف في خدمة المستوطنين، اللبناني ضد اللبناني في كابوس التمزيق الوطني؟

سمعنا هذا الخطاب المطَمئن من قبل. سمعه الفلسـطينيون في أوسـلو طـوال ثلاثـة عقـود من الخديعة. يومها أيضاً قيل إن المنطقة تغيّرت، وإن الواقعية تقتضـي قبـول «الفرصـة التاريخيـة». لكنّ النتيجة كانت تكريس احتلال القوة وتدمير الفرصة إلى غير رجعة، كي لا ينسى كل مَن سئم «حرب الآخرين على أرضنا» أنها كانت وما زالت حـروب الكيـان ذاتـه على أرضـنا. الأمـر نفسـه حدث مع وسـائل التواصـل الاجتمـاعي. كبـار مهندسـي التكنولوجيـا تجـاهلوا التحـذيرات سـنوات طويلة، ثم اكتشفوا متأخّرين أنهم ساهموا في بناء منظومة تفتك بالمجتمعات من الداخل.

طبعاً لا نرفض فكرة السلام كقيمة إنسانية مجرّدة مع أي طرف يحترمها. المشـكلة في السـياق الذي يُفرض فيه السلام لتكريس موازين القوى. لبنـان يعيش خطـر تحويـل «السـلام» إلى آليـة العصـا القاتلـة على الأرض واسـتكمال الجـزرة الناعمـة في واشـنطن لمـا عجـزت الحـروب عن تحقيقه بالكامل: تفكيك قوة المقاومة وإلغـاء السـيادة وإعـادة هندسـة البلـد بمـا يناسـب هيمنـة الكيان على لبنان والمنطقة.

علّمنا الذكاء الاصطناعي درساً قاسياً؛ أن ليس كل ما يبدو واعداً آمناً، وليس كل ما يحمـل فوائـد مُحتمَلة خالياً من المخاطر الوجوديـة. التكنولوجيـا قـد تعـالج السـرطان، لكنهـا تنتج أيضـاً أدوات تدمير غير مسبوقة، كما نختبر في مدن لبنان وغزة. كذلك السلام: قد يَعـد بالازدهـار، لكننـا نعلم أن ازدهار العدو على حسابنا فيما نلتقط بعض الفُتات، ونعلم أنه يحمل داخله ديناميكيات تفكيــك طويلة الأمد لبلد لا يملك مناعة كافية.

دعونا جانباً من العواطف والأيديولوجية وأغبياء الكـأس الـتي سـتتحطّم على رؤوسـهم. المسـألة بصيرة سياسية محدودة ومجتمع ينبهر بالوعود المُعلّبة. المجتمعات تُـدمّر بـالوعود الرنّانـة أيضـاً، لكنها تنجو عندما تفهم الحوافز قبـل دفـع الثمن. فئـة الضـجيج لم تتعلّم من تاريخنـا الحـديث ولا تاريخ المنطقة للنظر إلى العواقب المُحتملة قبل وقوعهـا، وقبـل أن يصـبح لبنـان نفسـه وجنوبـه الثمن. يمكن توقّع ما ستفعله التكنولوجيا بالعـالم لـو فهمنـا الحـوافز الـتي تحكم وسـائلها. يمكن أيضاً توقّع ما قد يفعله «سلام» غير متكافئ بلبنان، إذا امتلكنا الجرأة الكافيـة لننظـر إلى الواقـع كما هو، لا كما نتمنى أن يكون.

* جريدة الأخبار 2026/05/23

* كاتب لبناني